



نموذجان من الشعر والنثر ظهرا فيهما مُجَرِّزةُ بَرَاةِ الْمَسِيحِ الْمَوْعُودِ في فنِّ المِجَارِضَاتِ وفي صِنَاعَةِ الْأَدَبِ الْكَرْبِيِّ عَامَةً

تميم أبو دقة

ألف الإمام المهدي والمسيح الموعود زهاء ٢٢ كتابا باللغة العربية الفصيحة والبلغة، قدّم فيها مبادئ الإسلام الحقّة وتعاليمه السامية، وضَمَّنَها آلاف الآيات من الأشعار الرائعة في العرفان الإلهي ومدح النبي ﷺ وأظهر مزاياه العظيمة ومدح الإسلام والقرآن الكريم. لقد تجلّت في هذه الكتابات آية عظيمة؛ وهي تعلم حضرته الإعجازي لأربعين ألفا من اللغات العربية في ليلة واحدة، إذ علمه الله تعالى الجذور والنحو والصرف والأساليب والتراث والشعر والأدب والامثال والثقافة العربية ولهجات العربية الفصيحة المتنوعة. ولقد ظهر هذا التعلم في قوة لغته فتحدّى الخصوم مرارا للإتيان بمثله كتاباته وعجزوا عن ذلك، كما تجلّى في تطعيم كتاباته وأشعاره بالتراث العربي ومُلِحِه، بل وفي تجديد اللغة وربطها بتراثها، بل وفي إنشاء حركة للحفاظ على التراث العربي واستدامة ربط ماضيها بحاضرها معاكسا بذلك تيارا كان قد ساد في العالم العربي وسعى إلى تسطيح اللغة بل وإهالها والتخلي عنها، بل تقدّم درجة بإعلان أن الله تعالى قد علمه بأن العربية هي أمّ اللسان وأعظم لغات العالم بلا منازع، وقدّم الأدلة العديدة على ذلك وتحدى بها. وفي المقالات التالية سيتضح جانب من أعمال حضرته ومظاهرها، كما سيُردُّ تلقائيا على الاعتراضات حول اللغة العربية وعلى رأسها الاتهام بالسرقة من كتب الأدب العربي كالحريري والهمداني وكذلك من الشعر الجاهلي.

لا تستهدف النقض بل توجّه وتلفت الانتباه إلى العمل السابق لتظهر البراعة في العمل اللاحق. في هذا المجال قد تفوّق المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام وأظهر مقدرة مذهلة كانت بلا شك دليلا على التعليم الإعجازي للغة العربية الذي علمه الله تعالى إياه. وسأقدم هنا نموذجا لمعارضة حضرته للحريري في بضعة أبيات وردت في مقامته الحرامية، إذ قال يصف محمّلة بني حرام في البصرة:

المعارضة الشعرية، كما هو معروف، هي أن ينظم شاعر قصيدة على نسق قصيدة لشاعر قبله، سواء كان معاصرا أو من زمن ماضٍ، ويستخدم فيها ذات الوزن والقافية والتعابير والصور، ثم يُظهر براعته في توظيف التعابير والصور بصورة أجمل وأكمل. وكلما كان قادرا على توظيف تعابير وصور أكثر كان هذا علامة على مقدرته وبراعته وإبداعه. وتدخل ضمن هذا الفن النقائص التي يسعى فيها كل شاعر لنقض الآخر، ولكن المعارضات

بها ما شئت من دين ودنيا
فمشغوفُ بآياتِ المشائي
ومُضطَّكِعٌ بتلخيصِ المعاني
وكرٌّ من قامرئٍ فيها وقارٍ
وكمٌّ من معلِّمٍ للعالمِ فيها
ومعنى لا تزالُ تعنُّ فيه
فصلٌ إن شئتَ فيها من بُصلي
ودونك صُحبةَ الأيكاسِ فيها

وجيرانٍ تناقوا في المعاني
ومفتونٌ برناتِ المشائي
ومُطَّلِعٌ الى تخلصِ عانٍ
أضكرًا بالجفونِ وبالجفانِ
ونادٍ للندي حُلُوِ المجائي
أغاريدُ الغوايِ والأغاني
وإما شئتَ فادنُ من الدنانِ
أو الكاساتِ منطلقِ العنانِ

المعارضة الشعرية، كما هو معروف، هي أن ينظم شاعرٌ قصيدةً على نسق قصيدة لشاعرٍ قبله، سواء كان معاصراً أو من زمن ماضٍ، ويستخدم فيها ذات الوترن والقافية والتعابير والصور، ثم يُظهر براعته في توظيف التعابير والصور بصورة أجمل وأكمل. وكلما كان قادراً على توظيف تعابير وصور أكثر كان هذا علامة على مقدرته وبراعته وإبداعه.

وكيف أنهم بذلك أفسدوا دينهم وديناهم، ثم حصَّهم على الرجوع إلى القرآن الكريم ومدحه ووصفه وصفا رائعا وذكر صفاته وجماله وحسن بيانه وعظمته الفارقة، وردَّ خلاها على القسيسين النصارى وتوعَّدهم بالردود المفحمة مقابل فحشهم وإساءتهم إلى الإسلام والنبي ﷺ، وكيف أنهم هم الذين يميلون الناس إلى الدنيا والشهوات، هذا إضافة إلى معانٍ أخرى أيضا. وسأنتخب بعض الأبيات من هذه القصيدة، إذ يقول حضرته:

وملخص ما يريد الحريري قوله في هذه الأبيات هو أنك في هذه المحلة تستطيع أن تجد المساجد والعابدین والعلماء وقرآء القرآن وحلقات الذكر وتستطيع أن تجد أيضا الحَمَارَات والحانات ودور اللهو، فتستطيع أن تختار ما تشاء. أما المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام فقد استخدم كثيرا من هذه التعابير من هذه الأبيات القليلة التي هي ثمانية أبيات وضمَّنها في قصيدة طويلة له بلغت مئة وواحدًا وعشرين بيتا، ذكر فيها ميل الناس إلى الدنيا والشهوات



إلى الدنيا أوى حربُ الأَجاني
نسوا من جهلهم يوم المعادِ
تراهم مكائلين إلى مُدامٍ
وكرّ منهم أسارى عَيْنِ عَيْنٍ
لهنَّ على بُعولتهن حُكْمٌ
دماء العاشقين لهنَّ شغلٌ
ومن عَجَبِ جُفونٍ فَكَاتَرَتْ
بناظرةٍ نصيد الناسَ لمحا
وأنى الأمن من تلكِ البَلايا
فعشاق العوايِنِ والمثاني
يصدّون الوري من كل خيرٍ
عمكيات الرجال تزيد منهم
ومكان من ملجأ من دُونِ مَرَبٍ
فنشكوه كاربين من البَلايا
جكرت حرتاً عيون من عيوينِ
فهل وجدت شكالي مثل وجدي
وكرّ من ظالم يبغي فسكاداً
تفأحشهم تجاوز كل حدٍ
فكنت أطلعن كتاب سَابِ
رأينا فيه كلمغا مُحْفَظَاتِ
صبرت عليه حتى عيل صبري
وتأتي ساعة إن شاء ربي
أخذنا السبّ منهم مثل دينٍ
سنعشاهم ببرهان كعُضْبِ

وحسبوها جكنى حلّو المجاني
وتركوا الدين من حبّ الدنانِ
وغيدِ والعوايِنِ والأغاني
ومشغوفين بالبيض الحسانِ!
تري كُلاً كمنطلق العنانِ
بعينٍ أنجحت ظيِّ القنانِ
أرين الخلق أفعال السنانِ
تفوق بلحظها رُحَّ الطعانِ
سوى الله الذي ملك الأمانِ؟
أضاعوا الدين من تلك الأمانِ
ويغتاطون من تخليص عكاني
وفتن الدهر تنمو كل آن
كريم قادر كهف الزمانِ
إلى الله الحفيظ المستعانِ
بما شاهدتُ قنّاً كالدخانِ
أذى أمرهل لها شأن ككثاني؟
وقسيسين أصل الافتنانِ!
كان غداءهم فحشُ اللسانِ
وتمطر مُقَلَّتِي مثل الرثانِ
وسبَّ المصطفى بحر الحنانِ
ونار الغيظ صارت في جكاني
أقرُّ العين بالخصم المهانِ
وعزُّنا لديهم كالرّهانِ
رقيق الشفرتين أخ السنانِ



أناجيل النكاري كالأتان
وتهذي مثل عادات الأداني
وإيماناً بتصدق الجنان

.....

فرائد زانها حسن البيان
معارفه التي مثل الحصان
وأسرار وأبكار المعاني
يبكت كل كذاب وجاني
فدينا مربنا ذا لامتنا
خفير جالب نحو الجنان
ونور من بيان كالجمان
جمال بعده والتيران
أيوما للعل والسبت اليماني
وليس له بهذا الفضل ثاني؟

.....

يميل الهالكون إلى الدخان
به سرننا إلى أقصى المعاني
وخف شر العواقب والهوان

.....

ولا نفتاظ من تكفير خان

.....

لرب محسن ذي الامتنا

(نور الحق)

وما تدري الهدى وحلت جهلاً
تضنض مثل نضضة الأفاعي
هلم إلى كتاب الله صدقاً

.....

وما القرآن إلا مثل درر
وما مست أكت الكاشمين
به ما شئت من علم وعقل
يسكت كل من يعدو بضغن
رأينا در مرتته كثيراً
وما أدراك ما القرآن فيضاً
له نوران نور من علوم
كلام فائق مارق طريف
آية الشمس عند سناه دخن
وإن يكون للقرآن مثل

.....

وكل النور في القرآن لكن
به نلنا تراث الكاملينا
فقم واطلب معارفه بمجد

.....

ولا نخشى سهام اللاعينا

.....

وآخر كلمنا حمد وشكر



لم يطلب منه أن يقسم بالله العظيم المنتقم الجبار مثلاً، فهذا الذي ينسجم مع السياق؟ أما ذكر صفات جمال النساء هنا إنما يعني أن الشخص مفتون مرتاح البال لا يشعر بالضيق على مقتل ابنه، بل يتذكر النساء ويتطلع إليهن! وهذا لو كان على الأرض الواقع لكان سماجة ما بعدها سماجة. أما المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام فقد استخدم هذه التعابير في سياق جميل وهو وصف القرآن الكريم وجاء الوصف رائعاً ومناسباً تماماً للمناسبة، إذ قال: «أعطي له (القرآن) حظاً تام من كل ما ينبغي في المحبوبين من الاعتدالات المرضية، والملاحظات المتخطفة، كمثّل حور العيون، وبلّج الحواجب، وهبّ الحدود، وهيف الخصور، وشنب الثغور، وفلج المباسم، وشم الأنوف، وسقم الجفون، وترّف البنان، والطرّ المزينة». (التبليغ)

وهكذا فقد حوّل حضرته عليه الصلاة والسلام الكلام العاثر اللاغبي للحريري غير المنسجم مع السياق ليكون كلاماً رائعاً في وصف القرآن الكريم! أخيراً، فإن هذين مجرد مثالين لهذه المعجزة البلاغية لحضرته. وإننا ندعو الباحثين والنقاد المحترفين - بغض النظر عن موقفهم من الجماعة أو إيمانهم بالمسيح الموعود - أن يتناولوا هذه النصوص ويدرسوها لعلمهم يستفيدون في ترقية الذوق الأدبي العربي المعاصر وإعادته إلى أصالته وجزالته وقوته بعد أن تردى الذوق العام وانتشرت الكتابات الركيكة المبني والمعنى التي لا صلة لها بالماضي والتراث الأدبي العربي بل هي كشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

إن هذا النور السماوي الذي نزل مع المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام كان لا بد أن يعطي هذه الدفعة للغة العربية وآدابها، وهذا ما تحقق بالفعل وما نراه ونلمسه كل يوم بفضل الله تعالى.

فبالنظر إلى هذه الأبيات المختارة، نرى أن الفارق هائل بين المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام والحريري سواء في المعاني والرسالة التي قدّمها حضرته أو في المقدرة والغزارة الشعرية والبيانية. فمقابل استخدام هذه التعابير المحدودة في هذه الأبيات القليلة قدّم حضرته عشرات التعابير الأروع، ووظف تعابير الحريري في إطار رسالته السامية التي قدمها وارتقى بها من المعنى التافه الذي قدمه الحريري إلى هذه المعاني العظيمة والرائعة. والواقع أنه ربما يكون من الظلم عزو ذلك إلى المعارضة الشعرية؛ إذ كيف يمكن مقارنة ثمانية أبيات - يقول فيها الحريري إنك إذا زرت تلك المحلة فيمكن لك أن تجد المتقين والزهاد فتنسجم معهم أو تجد الفساق والفجار أيضاً فتنسجم معهم إن شئت! - مع مئة وواحد وعشرين بيتاً مليئاً بهذه المعاني الرائعة والتعابير العظيمة الراقية اللذيذة السلسة.

أما في النثر، أو ما يمكن تسميته بالمعارضة النثرية التي قلنا إن المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام كان مبتكرها في الأدب العربي ورائدها بلا منازع، سأقدم مثلاً لارتقاء حضرته بتعابير الحريري التي تبدو محشورة حشراً في نصّه بقصد الإمتاع لا أكثر لتصبح هذه التعابير في نصّ المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام موظفة في محلّها تماماً وعلى أحسن ما يكون، وتقدم صورة بيانية رائعة.

فقد قال الحريري ذاكراً قصة شيخ يتهم شاباً بقتل ابنه ويطلب منه القسم بصيغة مفتعلة كما يلي: «فقال الشيخ للغلام: قُلْ والذي زين الجباه بالطرّ، والعيون بالخور، والحواجب بالبلج، والمباسم بالفلج، والجفون بالسقم، والأنوف بالشمم، والحدود باللهب، والثغور بالشنب، والبنان بالترّف، والخصور بالهيف، إنني ما قتلتُ أبناك سهواً ولا عمدًا، ولا جعلتُ هامته لسيفي غمداً». (المقامة الرحبية) فما علاقة تذكر صفات جمال النساء في هذا القسم؟ ولماذا